جهود الكنيسة البابوية في تحرير الأسرى الأوروبيين في الجزائر خلال العهد العثماني (مقاربة تاريخية)

الدكتور: سعيود إبراهيم
جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله

– **توطئة:** طيلة ثلاثة قرون تقريبا –بداية القرن 16م إلى الثلث الأول من القرن 19م– عرف البحر المتوسط صراعا ضاريا، وحروبا دموية بين دولة قررت الدفاع عن كيانها وذاتها ووجودها، حيث تمكّنت من توجيه ضربات موجعة لأعدائها، وبين تكتّل مسيحي وظّف كل إمكاناته وطاقاته للقضاء على الجزائر، وعلى نظامها الذي رفض الركوع والتراجع أمام التحرّشات المسيحية المتكررة والمعلنة على السواحل الجزائرية.

وقد نتج عن هذا الصراع، وعن هذه الحروب خسائر بشرية قدّرت بعشرات الآلاف، يضاف لهم عدد هائل من الأسرى في الضفّتين الشمالية والجنوبية للمتوسط.

وقضية الأسر والرق قديمة قدم التاريخ، فخلال فترات التاريخ الإنساني التي اتسمت بالصراع بين القبائل أو الدول كانت قضية الأسرى تشكل نواة علاقات التفاوض بين هذه القبائل أو الدول، فإما يصبح هؤلاء الأسرى عبيدا يسخرون لخدمة الأقوياء أو يتم افتداؤهم بدفع مبالغ مالية أو عن طريق التبادل.

وقد شكل موضوع الأسرى في ضفتي البحر الأبيض المتوسط الجنوبية والشمالية منحى واسعا في العلاقات بين المغرب الإسلامي وأوروبا المسيحية المتوسطية، هذا المنحى ينبغي النظر فيه بإمعان لسبر أغواره، وكشف حقائقه، وإعطاء هذه القضية الاجتماعية حقها من البحث، لأن مسألة الأسر والأسرى لم تحظ بالعناية الكافية من طرف الباحثين، وبخاصة في المغارب.

ولعل من أسباب التي دفعتني للبحث في موضوع الأسرى ، فذلك يعود بالدرجة الأولى إلى كون قضية الأسرى والاسترقاق هي في الواقع مأساة

بشرية تقلبت فيها أحداث الزمان، واصطخبت صروف الأيام، وداول الدهر فيها بين شطريه، فهو مرة هم وغم، وهو في أخرى خذلان وبلاء مستطير.

وأما السبب الثاني فيتعلق بالكم الهائل من الوثائق التي عثرنا عليها في مختلف المراكز الأرشيفية الإيطالية وفي مقدمتها مركز أرشيف "بربقندا فيدي"[1]

هذه الوثائق كشفت لنا مدى اهتمام الكنيسة بقضية الأسرى المسيحيين في الجزائر خلال الفترة العثمانية، وعن مدى الجهود المبذولة من طرف الهيئة البابوية في روما، والهيئات الأخرى المرتبطة بها من أجل افتكاك هؤلاء الأسرى، وإعادتهم إلى أوطانهم وذويهم.

– الأسرى الأوربيون في مدينة الجزائر خلال الفترة الحديثة:

شكلت التركيبة السكانية لمدينة الجزائر خلال العهد العثمانية، أساسا للبنية الاجتماعية لهذه المدينة حيث ضمت أثناء هذه الفترة مجموعات من العناصر السكانية متباينة فيما بينها، ومن أبرز هذه العناصر، الأتراك العثمانيون، والكراغلة، والحضر، والموريسكيون الأندلسيون، وفئة البرّانية، والزنوج، واليهود، والأوروبيون.

تنقسم هذه الفئة الأخيرة، إلى مجموعتين، مجموعة الأوروبيين الأحرار المكونة من القناصل، والمبعوثين الكنسيين، وموظفي القنصليات، والتجار، ووكلاء المؤسسات التجارية، وآباء الافتداء. ومجموعة الأسرى.

كان عدد الأسرى الأوربيين في الجزائر خلال الفترة العثمانية يتغيّر بين فترة وأخرى، وذلك لارتباط مسألة الأسر، وقضية الأسرى بالنشاط البحري، ونشاط القرصنة في البحر المتوسط، كما أن فترات السلم والأمن لعبت دورها في تناقص عدد الأسرى في ضفتي المتوسط. وأمّا خلال فترات الصراع، فإن عددهم كان يتزايد ويتضاعف بدون شك.

أوردت بعض الدراسات الأوروبية بعض الإحصائيات عن عدد الأسرى الأوربيين في الجزائر، فهايدو (Haedo) ذكر أن عددهم في الجزائر تجاوز مائتا ألف أسير، وفي نفس السياق أورد الراهب دان (Dan) بأن عددهم كان يتراوح بين ألفين وخمسمائة و ثلاثة آلاف أسير منهم ألف

ومائتي امرأة، وأما الراهب دو لا فاي (De La Faye) فقد ذكر أنه لم يبق في الجزائر سنة 1725 سوى أسيران مسيحيان اثنان.[2]

على العموم، فإن الوثائق التي اطلعنا عليها خلال رحلاتنا المتكررة إلى إيطاليا، اتسمت بكثير من التناقض فيما يخص عدد الأسرى المسيحيين في الجزائر عامة، فقد أورد أحد المبعوثين الكنسيين من خلال مهمة قام بها في الجزائر تقريرا مؤرخا في 10 ديسمبر 1763 جاء فيه: الجزائر هي المدينة مقر إقامة المبعوث الكنسي، وتنقسم مملكة الجزائر إلى ثلاث مقاطعات يحكمها ثلاث دايات، داي قسنطينة في الشرق، وداي معسكر في الغرب، وهناك داي التيطري[3] وفي ناحية قسنطينة يوجد عدد كبير من الأسرى المسيحيين حوالي 1300، أغلبهم في المنطقة المسماة قالة أين توجد كنيسة أيضا. وفي مدينة بونة التي كانت تسمى قديما هيبونة حيث توجد كنيسة القديس أغسطين، في هذه المدينة يوجد مسيحيون كثيرون[4] كما تجد بهذه المدينة غرفة تجارية جنوية (Casa Genovese) ومن هذه المدينة يتمّ شحن سلع عديدة باتجاه مناطق إيطالية مختلفة، وفي مقدمة هذه السلع الحبوب. وأما قسنطينة فيوجد بها ثلاثون أسيرا استقدمهم داي قسنطينة (يعني الباي) من مدينة الجزائر، وتتراوح أعمار هؤلاء الأسرى ما بين 12 و25 سنة.

- سجون الأسرى الأوربيين:

وأما سجون الداي في مدينة الجزائر فقد وصل عدد الأسرى بها 800 أسير، أغلبهم صقلّيون، وبالقرب من إحدى الكنائس يوجد سجن به حوالي 500 أسير مسيحي، بحسب ما ورد في وثيقة مؤرخة في 10 ديسمبر 1763.[5]

مقابل هذه الأعداد فقد أشارت وثيقة كنسية أخرى، مؤرخة في 22 فيفري 1790، أن عددهم في الجزائر خلال هذه الفترة لم يكن يتجاوز تسعة وثلاثون أسيرا.[6]

كانت هذه السجون، تسمّى بانيو (Bagno) وتعني الحمّام، ذلك أن الأسرى كانوا يودعون في الحمّامات أثناء الليل، إلا أن الارتفاع المتزايد

للأعداد الأسرى، دفع بالحكومة الجزائرية آنذاك إلى تخصيص مباني لهذا الغرض، مع احتفاظها بنفس التسمية[7]

كانت سجون مدينة الجزائر شبيهة إلى حد كبير بالمنازل السكنية، أي أنها كانت تتألف من بهو داخلي يتوسط المبنى، تحيط به أروقة مقسمة إلى غرف متفاوتة المساحة، حيث تأوي الغرفة الواحدة ما بين 15 و20 أسيرا، وهي خالية من الأثاث إلا من حصائر مصنوعة في الغالب من القصب أو الحلفاء يستخدمها الأسرى أثناء نومهم[8].

وتنقسم سجون الأسرى في مدينة الجزائر إلى قسمين:

– سجون البايلك:

ويعود تاريخ تأسيس هذه السجون إلى القرن السادس عشر، وكان عددها في البداية اثنان، السجن الكبير الذي كان يقع في شارع السوق الكبير بالقرب من باب عزون[9]، وكان يسمى أيضا سجن الملك لأن خير الدين هو الذي أسسه، ونظرا لسعة مساحته فقد كان يترل به عددا كبيرا من الأسرى، فقد ذكر هايدو أن هذا السجن كان يضم ما بين خمسمائة وألفي أسير[10]، وهذا أثناء فترة حكم حسن فينيزيانو[11]

ويأتي بعد السجن الكبير، سجن الباستارد[12]، أقل من الأول مساحة، وهو مقسم على غرار السجن الكبير إلى غرف، وهو مخصص للأسرى المكلفين بالعمل في الأشغال العامة، ويعرف هؤلاء الأسرى باسم عبيد المخزن، لأنهم من أملاك الدولة[13].

يضم سجن الباستارد، كنيسة يحي فيها الأسرى المسيحيون صلوات وقداس أيام الأحد، وفي المناسبات والأعياد الدينية المختلفة، ويترد على هذا السجن العديد من المبعوثين الكنسيين، ورجال الدين من القساوسة، وذلك لتقديم ما يعرف عند المسيحيين بالدعم الروحي، ويتراوح عدد الأسرى فيه ما بين أربعمائة وخمسمائة، يتمتع أغلبهم بحرية في الحركة[14].

ومع تزايد عدد الأسرى، أصبح من الضروري، بناء سجون جديدة، فقد أضيف إلى السجنين السابقين سجن ثالث، هو سجن سيدي حمودي[15]، وسجن رابع هو سجن الغاليرات[16]، وتلا بعد ذلك إقامة سجون أخرى مثل سجن علي بتشين الذي كان يتسع لخمسمائة أسير،

وسجن شلبي، وسجن سانت كاترين، وسجن الديوان، وسجن الأسود الواقع في المكان المسمى "تبرنة البايلك" وسمي كذلك لاحتفاظ الداي في قسم منه ببعض الأسود، التي كان يقدمها كهدايا لبعض ملوك أوروبا[17].

كما كان الأسرى الأوروبيون يقيمون أيضا في الحمامات التي كانت في الغالب شبيهة بالمنازل، بباب رئيسي ضيق وممر طويل، أين تتوزع غرف الأسرى[18]، إلى جانب وجود حانة، يقضي فيها الأسرى أوقات فراغهم[19]، كما تتشكل الحمامات من طابق علوي يحتوي على غرف يقيم بها الأسرى، إلى جانب وجود شرفات تطل على الفناء الداخلي، أين يوجد خزان الماء، إضافة إلى غرفة صغيرة توضع فيها سلاسل الأسر[20].

أما الأسيرات الأوروبيات، فكان عددهن قليلا، وقد عرف على العثمانيين احترامهم للأسيرات الأوروبيات على الرغم من كونهن مسيحيات، فلم يكونوا يجبروهن على اعتناق الإسلام[21]. وفي هذا الصدد ذكر الأب دان أن عدد الأسيرات المسيحيات اللواتي اعتنقن الإسلام في سنة 1630، بلغ نحو ألف أو يزيد بقليل (ألف ومائتي) إمرأة[22].

كان الأهالي يشترون الأسيرات، للعمل في المنازل، وكثيرا ما ينتهي الأمر بزواج الكثيرات بمالكيهن بعد اعتناقهن الإسلام، كما حدث مع خير الدين بربروس الذي تزوج من الأسيرة ماريا كايتانو[23].

– **بيوت الخواص:** كان من الأسرى الأوروبيين من يقيم في بيت مالكه تشير أغلب مراسلات المبعوثين الكنسيين الذين توافدوا على الجزائر طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر، إلى قضية الأسرى المسيحيين، واتسمت هذه المراسلات بالمبالغة في وصف حالتهم فهم مساكين بحسب ما ورد في بعض هذه الوثائق (Questi poveriti, O quei meschini)، والهدف من ذلك استعطاف الكنيسة البابوية، والجمعيات الدينية والمدنية للمساهمة في جمع الأموال لافتدائهم، ومما ورد في هذا السياق ما جاء في مراسلة المبعوث الكنسي كروازيل[24] (Groiselle) "بعد المقدمة التي تضمنت التحية والإجلال والتعظيم ذكر... رأيت في مدينة الجزائر عددا هائلا من الأسرى عددا هائلا من الأسرى المسيحيين، لأجل الرب، ولهؤلاء ألتمس عطفكم وحمايتكم المقدسة، فهم مدينون لكم بالرحمة،

يوجد من بين هؤلاء الأسرى قساوسة، ورجال دين آخرون من رتب كنسية مختلفة، وكذلك من جمعيات دينية مختلفة، كذلك يوجد من بين هؤلاء ضباط عسكريون ذوي رتب عسكرية عالية، والجنود أيضا، وهناك أشخاص ذوي مهن مختلفة، منهم المهندسون وربابنة السفن، يوجد أسرى مسنّون، وكذلك أسرى من فئة الشباب، توجد النساء أيضا، منهن السيدات والأوانس، كما يوجد الأطفال كذلك، كل هؤلاء الأسرى مكبلون في القيود، تبدو على وجوههم مظاهر الشقاء والغبن، رأيت في هذه المدينة أسرى مسيحيون من كل الأعمار والأقطار منهم الرومانيون، والجنويز، والنابوليتان، والأسبان، والبرتغاليون، والفرنسيون، والاسلنديون والبولنديون، وغيرهم من الأمم المسيحية، رايتهم يعاملون كأنهم مجرمون، محتقرون مهانون، ومعذبون، يضربون من طرف البرابرة الهمجيين، ضربا مبرحا من غير شفقة و لا رأفة."[25]

الأسرى المسيحيون في الجزائر سنة 1790 [26] .

اسم الأسير	الموطن	العمر	مدة الأسر
– سيباستيان كارتاريللي	–بارما	23 سنة	03 سنوات
– جون باتيست ريكور	– شاتو قرينيتي فرنسا	42 سنة	03 سنوات
– فرنسوا شارتران	– فرنسا	40 سنة	04 سنوات
– جيو آشينو ديفييرسي	– أرنيتو روما	33 سنة	08 سنوات
– جوانو تيسياسترا	– إسبانيا	48 سنة	08 سنوات
– كيتانو إسلينيا	– إسبانيا	32 سنة	06 سنوات
– جوزيف ريزينا	– إسبانيا	50 سنة	25 سنة
– فرانشيسكو لاتيس	– إسبانيا	45 سنة	04 سنوات
– سيلفاستي ريفيلا	– إسبانيا	42 سنة	07 سنوات
– فرانشيسكو أقولييني	– إسبانيا	46 سنة	12 سنة
– جونيي روجاس	– مدريد إسبانيا	–	–
– ميقال فرنندو	– إسبانيا	33 سنة	09 سنوات
– اندريا قارسيا	– إسبانيا	34 سنة	07 سنوات

– جوان أليياي	– إسبانيا	31 سنة	10 سنوات
– ريمون قارندو	– إسبانيا	53 سنة	23 سنة
– ميقال موريلا	– كالابريا	65 سنة	35 سنة
– بييترو نافاريا	– أفلينو إيطاليا	66 سنة	35 سنة
– جياكومو دي سيزاري	– إيطاليا	55 سنة	35 سنة
– باسكوالي كلزونا	– كالابريا	64 سنة	35 سنة
– سيمون فيورناري	– صقلية	64 سنة	35 سنة
– بييترو لانقو	– صقلية	73 سنة	35 سنة
– نيكول ودي ديو	– كابوانو إيطاليا	60 سنة	35 سنة
– لورنزو قالاريو	– دي بوقليا إيطاليا	70 سنة	35 سنة
– باسكوالي صوميللو	– نابوليتانو إيطاليا	60 سنة	35 سنة
– ماركو كاليتشي	– بيين فانتو إيطاليا	60 سنة	35 سنة
– أنتونيو نورفيل	– أورقون	60 سنة	33 سنة
– لورنزو ميتشي	– دي سبوليتو إيطاليا	38 سنة	08 سنوات
– جيوفاني مارتيناريو	– دي فيريرا إيطاليا	40 سنة	17 سنة
– جيوباتيستا شيماريللي	– أنكونا إيطاليا	50 سنة	09 سنوات
– أنجللو روسي	– كالابريا	65 سنة	35 سنة
– أنطونيو قاسميور	– إسبانيا	26 سنة	04 سنوات
– بيار كودور	– فرنسا	25 سنة	04 سنوات
– لورنزو سولفوريتو	– إيطاليا	33 سنة	10 سنوات
– ستيفان بروك	– سافواياردو فرنسا	29 سنة	03 سنوات
– أنطونيو بينيتوس	– البرتغال	32 سنة	08 سنوات
– شيكوتو بويي	– سردينيا	28 سنة	02 سنتين
– فرانشيسكو آزوو	– سردينيا	22 سنة	02 سنتين
– فبريزيو ميركادي	– سردينيا	70 سنة	33 سنة
– أنطونيو لادرينياري	– سردينيا	27 سنة	03 سنتين

نستنتج من خلال هذا الجدول، أن الأسرى الإيطاليون يحتلون المرتبة الأولى من حيث العدد ب:18 أسيرا، أي ما يعادل 46.15% يليهم الإسبان بـــ: 16 أسيرا، ما يعادل 41.02 % ثم الفرنسيون في المرتبة الثالثة بـــ: 04 أسرى، ما نسبته 10.25 % وأخيرا البرتغال بأسير واحد، ما يعادل 2.56%.

– اهتمام الكنيسة البابوية بالأسرى المسيحيين:

أولت الكنيسة البابوية، وكذا الدول الأوروبية، وفي مقدمتها الدول المتوسطية، اهتماما كبيرا لمسألة الأسرى الأوروبيين، وذلك من خلال إصدار وثائق بابوية عرفت برسائل التوصية، وإرسال مبعوثين كنسيين، وممثلين للدول الأوروبية في الجزائر سواء كانوا سفراء أو قناصل، أو عن طريق الجمعيات الدينية والمدنية.

– إصدار رسائل التوصية

سمّيت هذه الوثائق البابوية رسائل التوصية (Litterae Hortatoriae)[27]، وهي براءات بابوية (Brevi Pontifici) تحمل ختم السلطة البابوية ممثلة في شخص البابا، وتسلّم لذوي الأسير، ويوصى في هذه الرسائل بتسهيل مهمة حاملها ومساعدته على جمع الأموال قصد افتداء الأسير المسيحي، وتحتوي رسالة التوصية على خمس فقرات رئيسية:

- الفقرة الأولى تتضمن الولاء لقداسة البابا، مع ذكر اسمه.
- الفقرة الثانية تتضمن وصايا المسيح المتعلقة بحماية المسيحية والمسيحيين. وتحتوي على المعلومات المتعلقة بالأسير، منها تاريخ وقوعه في الأسر، وموطنه الأصلي، وكذلك مهنته قبل الوقوع في الأسر.
- الفقرة الثالثة وتحتوي على تذكير بالثواب الذي يناله من ساعد على فك الأسير المسيحي.
- الفقرة الرابعة تتضمن المعلومات الدقيقة المتعلقة بالأسير، مثل الحالة الاجتماعية (أعزب أو متزوج) ولغته الأصلية فإذا كانت اللاتينية يشار إلى ذلك بكلمة لغتنا (Nostram Linguam) وتتم الإشارة أيضا إلى العلامات الخصوصية الظاهرة على جسم الأسير مثل

الوشم، أو بعض العيوب الجسدية، ومن العلامات الأخرى المذكورة، يشار إلى اللحية إن وجدت، وذكر قامة الأسير، بالإشارة إلى كونه طويلا، أو متوسط أو قصير القامة.

- الفقرة الخامسة وتحتوي على مكان وتاريخ صدور البراءة وتوقيع الجهة التي أصدرتها.
- إرسال المبعوثين الكنسيين.

أرسل الفاتيكان خلال الفترة الممتدة من سنة 1650 إلى سنة 1801 ثمانية عشرة مبعوثا كنسيا بصفة مبعوث مقيم ومعتمد من طرف السلطة في الجزائر[28]، إضافة إلى عشرات المبعوثين الكنسيين غير الدائمين، حيث تتولى مدرسة إشهار الإيمان (Collegio de Propaganda Fide) إرسالهم في المهمات المستعجلة المتعلقة برعاية شؤون الأسرى المسيحيين[29].

كان للمبعوثين الكنسيين دورا بارزا في مفاداة الأسرى المسيحيين، وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على مدى الاهتمام الذي توليه الكنيسة البابوية لهذه الفئة، فإذا أخذنا على سبيل المثال لا الحصر، وجدنا أن المبعوث الكنسي لومبير دوكين (Lambert Duquesne) الذي أقام في الجزائر أكثر من ثلاثين سنة (1705–1736) قد أرسل أكثر من ستين تقريرا إلى مدرسة الإشهار بالإيمان في الفاتيكان بروما حول الأسرى المسيحيين، وكان آخر تقرير أرسله حول هذه المسألة بتاريخ 19 جوان 1736[30]

قائمة بأسماء المبعوثين الكنسيين 1650–1801[31]

اسم المبعوث (Vicario Apostolico)	مدة الإقامة في الجزائر
فيليب لوفاشي (Philippe le Vacher)	1650-1662
بنيامين هويجي (Benjamin Huiguier)	1662-1663
جون لوفاشي (Jean le Vacher)	1667-1683
ميشال مونتماسون (Michel Montmasson)	1685-1688
جيوسيبس جيانولا (Giusseppe Gianola)	1689-1692
إيفون لورانس (Yvon Laurence)	1693-1705
لومبير دوكين (Lambert Duquesne)	1705-1736
بيار فارو (Pierre Faroux)	1737-1740

شارل بواريي (Charles Poirier)	1743-1741
أرنولت بوسو (Arnault Boussou)	1757-1746
تيودور كروازيل (Théodore Groiselle)	1763-1757
لويس دو لابي (Louis de Lapie)	1765-1763
فيليب لو روا (Philippe le Roy)	1773-1765
فرنسوا فيجيي (François Figuier)	1778-1773
كلود كوسون (Claude Cosson)	1782-1778
ميشال فيران (Michel Ferrand)	1784-1782
جون آلازيا (Jean Alasia)	1798-1785
كلود فيشيرا (Claude Vicherat)	1801-1798

- **دور جمعية الأرشيكونفراترنيتا ديل قونفالوني.**

تأسست هذه الجمعية بحسب ما ورد في وثائق مكتبة الفاتيكان سنة 1268[32]، في عهد البابا كليمونت الرابع (1265–1268) وهناك مصادر أخرى حددت فترة نشأتها مابين سنة 1250 و1270[33].

والأرشيكونفراترنيتا جمعية ذات طابع ديني لكونها نالت مباركة الكنيسة البابوية، فقد صدرت في شأنها عدّة براءات بابويـــة، تؤكد شرعية العمل الذي تقوم به[34]

وقد تعددت مهام ونشاطات جمعية الأرشيكونفراترنيتا، فمن أداء الصلوات، والتضرّع إلى الله في مختلف الكنائس الرومانية، إلى الترحم على الأموات، وإحياء مراسيم التعميد للمسيحيين أصلا، ولأولئك المعمدين الجدد من الذين تمّ تنصيرهم، ويعرف هؤلاء باسم نيوفيتي (Neofiti) (المنصرون الجدد). أو الأسرى العبيد (Schiavi e Schiave).

ولهذه الجمعية فروع ومقرّات في مختلف المدن الإيطالية من روما حتى نابولي وسردينيا جنوبا، وحتى توسكانيا وبادوفا شمالا، كما نالت هذه الجمعية شهرة كبيرة على مستوى الدول الأوروبية أيضا واتخذت هذه الجمعية من كنيسة القديسة (Chiesa di Santa Lucia) لوشيا في روما مقرا لها وهي ذاتها الكنيسة التي نشأت فيها أول مرة، كما انتشرت

مقرّاتها في نواحي عديدة من إيطاليا، ونالت شهرة عظيمة في كامل أرجاء أوروبا المسيحية تقريبا.

وارتبط نشاط هذه الجمعية بإحياء مراسيم التعميد للمسيحيين والمنصرين الجدد، وافتداء الأسرى المسيحيين عن طريق جمع الأموال المخصصة للفداء، ومساعدة أهالي الأسرى وذويهم في البحث عن أماكن تواجد أسراهم في البلاد الإسلامية، والتدخل بشأنهم لدى السلطة البابوية لإصدار رسائل التوصية.

أطلقت الأرشيكونفراترنيتا على نفسها اسم "الجمعية الأم" أو "أم الجمعيات" وإضافة إلى مهامها الدينية، فقد تحوّل اهتمامها لخدمة المجتمع المدني، كإغاثة المنكوبين، وتقديم الصدقات للفقراء والمساكين، والإشراف على إعداد مراسيم وولائم الزواج الجماعي لفئة الشباب[35].

من قيود الأسر إلى هرم السلطة.

شهدت الجزائر خلال العهد العثماني تدفق أعداد كبيرة من الأسرى الأوربيين، وذلك بسبب علاقات التوتر مع الدول الأوربية المتوسطية، التي كثفت من اعتداءاتها المتكررة دون انقطاع. خلال العقد الأول من القرن السادس عشر اشتركت أغلب الإمارات الإيطالية المتحالفة مع الإمبراطور شارل الخامس[36] في الحملات التي وجهت لاحتلال الجزائر، وهكذا تجابه الجزائريون والإيطاليون، ومن الحملات الإيطالية أو تلك التي قادها إيطاليون، حملة أندري دوريا[37] على شرشال، فقد أبحر دوريا من جنوة في شهر جويلية 1531 على رأس قوة بحرية مشكلة من 20 سفينة على متنها 1500 رجل، ولما أشرف على شرشال حاول مباغتتها، ففوجئ بمقاومة عنيفة من قبل البحرية الجزائرية، فانهزم تاركا وراءه نحو 600 أسير من رجاله[38] وقد كان رد فعل خير الدين آنذاك عنيفا، إذ شنّ هجوما على السواحل الجنوية واكتسحها برجاله، وعندما رجع إلى الجزائر أطلق عليه سكانها اسم ملك الجزائر المنتصرة[39] «Il Re di Algeri la vittoriasa»

ومنذ تحديها لإسبانيا سنة 1541، وانتصارها على شارل الخامس الذي كلفته محاولة الاستيلاء على الجزائر حوالي 10000 رجل و150 سفينة،

أصبحت الجزائر تسمى "**المحروسة**"[40] واعتبر أهل الجزائر أن هذا النصر من الله (سبحانه وتعالى).

مثلما سبقت الإشارة إليه، أن الجزائر شهدت تدفقا هائلا للأسرى، وسيقوا إليها، فمنهم من اعتنق الإسلام واندمج في المجتمع الجزائري، وآخرون من الأوروبيين –وهم كثيرون أيضا– غادروا بلادهم الأصلية عن طيب خاطر وقصدوا الجزائر، وأصبحوا مسلمين، ذلك أن مدينة الجزائر القوية والغنية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت تقدم لكل هؤلاء الإمكانات للحصول على الثروة والارتقاء في السلّم الاجتماعي واحتلال أعلى المناصب السياسية والعسكرية هناك.

والجدير بالملاحظة أن النازحين إلى الجزائر من بلاد مثل إيطاليا حيث كان أصل الفرد هو الذي يكيّف الحياة الاجتماعية وحيث كان النبلاء و الأغنياء وذوو السلطان يتمتعون بامتيازات ترفعهم عن باقي طبقات المجتمع التي لم تكن تصلح إلا للطاعة والخضوع لهؤلاء الأسياد، وقد انظم إلى هذا الاضطهاد الاجتماعي السيطرة الأجنبية التي كانت تخنق البلاد، فلا عجب أن يرى هؤلاء الجزائر الأرض التي يسود فيها التسامح والمساواة والحرية[41].

ومن الإيطاليين الذين وجدوا المجال فسيحا لاستثمار مواهبهم نجد، **حسن آغا** (1533–1544). كان حسن هذا من مسيحيي سردينيا، اعتنق الإسلام وهو ينتمي إلى تلك الفئة من الأوروبيين الذين ارتضوا لهم الإسلام دينا. بعد انتصاره على شارلكان سنة 1541 عفا حسن آغا على عدد من الأسرى المسيحيين[42].

رمضان باشا (1574–1577) وهو من سردينيا أيضا، أسر وهو شاب في سردينية فعنى سيده بتعليمه، وقد آنس فيه من الذكاء والموهبة ما يؤهله للارتقاء، ونظرا لخصاله الحميدة تولى عدّة مناصب إدارية واكتسب ثروات طائلة وحصل على الجاه والسمعة الطيبة واشتهر عند الناس بالعدل والاستقامة ودماثة الأخلاق والحلم وكان عهد ولايته على الجزائر عهد سعادة وازدهار[43].

وحسن فينيزيانو (1577–1580) وهو من مسيحيي البندقية، لقد كان وهو صغيرا يبحر على ظهر سفينة تدعى إيسكلافون (Esclavon) وفي إحدى المعارك البحرية استولى على تلك السفينة درغوث رايس حاكم طرابلس، وبعد وفاة درغوث أصبح حسن ملكا لقليج علي حاكم الجزائر (1568–1571) فعينه أمينا عاما للخزينة في الجزائر، وفي سنة 1577 تولى حسن حكم الجزائر حتى سنة 1580 [44] حيث تصلّب في محاربة الأسبان وأقلق راحتهم في البحر وفي بلادهم، وأتمّ تحصين الجزائر وأعدها لمواجهة كل هجوم محتمل كما تولى حسن حكم الجزائر ثانية (1583–1587) وكان غازيا في شرق البحر المتوسط، وفي عهده كثرت الغنائم في البحر ونشطت القرصنة نشاطا غريبا[45]

الشاعر الإيطالي أنطونيو فينيزيانو أسيرا في الجزائر.

هو شاعر صقلّي له شهرة في الأدب الإيطالي، ركب سفينة حربية صحبة دون كارلو الأراغوني (Don Carlo d'Aragona) فاحتجزت في شهر أفريل 1578، وسيق أنطونيو أسيرا إلى الجزائر، وهناك التقى الأسير الإسباني الذائع الصيت ميقيل دي سرفانتيس (Miguel de Servantes) فاتخذه صديقا، وكانا يتبادلان رسائل الشعر، وقد ألّف أنطونيو في الجزائر قصيدة مشهورة عنوانها **شيليا** (La Celia) أهداها لحبيبته الموجودة في صقلية[46]. نورد من هذه القصيدة هذه الأبيات:

Benchi Pri e Vogghia di li Dei

Tu Si'n Sicilia, ed Iu'n terra di Mori

E lu Corpu In Algeri

Fatto di Genti Barbara Suggettu

قضت إرادة الآلهة

أن تكوني في صقلية، وأنا في أرض العرب

جسدي في الجزائر

مستعبد عند البربر[47]

صفوة القول

سلطت هذه الدراسة الضوء على قضية من قضايا التاريخ الاجتماعي، وذلك من خلال معالجة موضوع الأسرى الأوروبيين في الجزائر, حيث ارتبطت هذه القضية بالاحتكاك الحضاري والصراع العسكري بين ضفتي البحر المتوسط، مما أدى إلى تصاعد النشاط البحري، وبخاصة في الحوض الغربي للمتوسط.

تميزت هذه الدراسة بأنها جمعت إلى حد ما بين التناول العام للعلاقات الجزائرية الأوروبية وذلك من خلال المعالجة المتخصصة لقضية من صميم التاريخ المتوسطي، آلا وهي قضية الأسرى.

إن البحث في موضوع الأسرى هو في الواقع دراسة لعلاقات سياسية اجتماعية، شكلت هذه العلاقات بين ضفتي المتوسط أساسا لحركية التاريخ في عمقه الحضاري وبعده الإنساني.

إنّ قضية الأسر والرق قديمة قدم التاريخ، فخلال فترات التاريخ الإنساني التي اتسمت بالصراع بين القبائل أو الدول كانت قضية الأسرى تشكل نواة العلاقات بين هذه القبائل أو الدول، فإمّا يصبح هؤلاء الأسرى عبيدا يسخّرون لخدمة الأقوياء أو يتمّ افتداؤهم بدفع مبالغ مالية أو عن طريق التبادل.

إن هذه الدراسة هي في نظرنا بحث في التاريخ الاجتماعي المتوسطي، لأن البحث في تاريخ العلاقات بين ضفتي المتوسط يكاد يقتصر على الجانب السياسي وتعاقب الدول والحكام، وأن حظ التاريخ الاجتماعي من الدراسة والبحث قليل.

ومن النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذا البحث، أن الكنيسة البابوية كمؤسسة دينية على مستوى الفاتيكان من جهة، وعلى مستوى الفضاء الجغرافي المسيحي الأوروبي، لعبت دورا محوريا في العلاقات بين المغرب الإسلامي وأوروبا المسيحية، وأن تحرك أوروبا المسيحية المتوسطية باتجاه جنوب المتوسط قد نال مباركة الكنيسة البابوية.

أولت الكنيسة البابوية، وكذلك الدول الأوروبية، اهتماما متزايدا بقضية الأسرى المسيحيين من خلال تكثيف نشاط الجمعيات الدينية

والمدنية، كما أصدرت السلطة البابوية أوامر في روما وخارجها من أجل تسهيل كل الإجراءات اللازمة لافتدائهم وإعادتهم إلى ذويهم.

بالمقابل كان هناك نوع من الاهمال من طرف الحكام والمؤسسات في بلاد المغارب فيما يخص ألأسرى المغارب الذين رمت بهم الأقدار ليتحولوا إلى عبيد بمقتضى براءة بابوية صدرت عن البابا باولو فرنيز[48]

– الهوامش:

[1]Archivio Storico « De Propaganda Fide »

[2] Moulay Belhamissi, « Les relations entre l'Algérie et l'Eglise Catholique à l'époque Ottomane. » in, Majallat Attarikh, CNEN, Alger 1980, pp. 58-60.

[3] يعني بذلك البايات، أي باي الغرب، وباي التيطري، وباي الشرق.

[4] لم يذكر صاحب التقرير إن كان هؤلاء المسيحيون من الأسرى.

[5] A.S.P.F, SC(Barbaria), Ristretto della relazione della missione di Algeri 10-12-1763.

[6] A.S.P.F, Fondo di Vienna, Un plico contenente i propriseriti.

[7] Corine Chevalier, Les Trente premières années de l'Etat d'Alger 1510-1541. Ed, OPU. Alger1986, p. 56.

[8] Corine (C), Op-cit, p. 56.

[9] مباركي نادية، الحياة الاجتماعية في مدينة الجزائر خلال القرنين 10-11هـ/ 16-17م من خلال مرافقها الحضارية. مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستيرفي التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2005-2006. ص 215. ينظر أيضا:

- محمة عائشة، الأسرى الأوروبيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للمتوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد. مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، المركز الجامعي غرداية، 1432-1433هـ/ 2011-2012م. ص26.

[10] Haedo (Diego Fray de), Topographie et histoire générale d'Alger, la vie à Alger au XVI siècle, traduction et notes de A. Berbrugger et Monnereau, 3éme édition, présentation de Abderrahmane Rebbahi, G.A.L, Alger2004, p55.

[11] وهو من مسيحيي البندقية، كان اسمه قبل اعتناقه الإسلام اندريتا (Andretta) لقد كان وهو صغير أي في سن الطفولة يبحر على متن سفينة تسمى اسكلافون (Esclavon) وفي إحدى المعارك استولى على تلك السفينة دراغوث رايس حاكم طرابلس، فساقه أسيرا، وبعد وفاة دراغوث سنة 1565، أصبح من المقرّبين من علج علي وعلى يده أسلم. ولم تكن هذه الحادثة فريدة من نوعها، ولا هي حالة طارئة، ففي ذلك العهد وخلال القرون التي تلت، وجد كثير من الإيطاليين والمسيحيين بصفة عامة الذين وقعوا في الأسر من جرّاء حروب القرصنة، فسيقوا إلى الجزائر، وهناك اعتنقوا الإسلام واندمجوا في المجتمع الجزائري وآخرون من الأوربيين – وهم كثيرون – غادروا بلادهم الأصلية عن طيب خاطر وقصدوا الجزائر وأصبحوا مسلمين وارتقوا في السلّم الاجتماعي واحتلّوا أعلى المناصب السياسية والعسكرية هناك.

ولّما تولّى علج علي حكم الجزائر سنة 1568 رقّاه بسرعة، وأعدّه لخلافته، فعينه في بداية الأمر أمينا عامّا للخزينة، كما كلّفه بقيادة سفينته الخاصة، وانتقاء أشهر الجدّافين.

تولّى حسن باشا فينيزيانو حكم الجزائر سنة 1577 إلى غاية 1580.(4) وكان حازما وصارما في سياسته الداخلية، كما اشتهر بالدهاء والقسوة، والحزم والطموح. حول حسن فينيزيانو ينظر: بونو سلفاتوري،" العلاقات بين الجزائر وإيطاليا حلال العهد التركي" ترجمة أبي القاسم بن التومي، الأصالة عدد.6 الجزائر جانفي 1972، ص ص 98-118.

بن خروف عمار، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي.ج1، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 1427هـ/ 2006م. ص، 110.

[12] أخذ سجن الباستارد تسميته من واقعة حدثت خلال فترة حكم حسن باشا ابن خير الدين، فبعد انتصاره على الكونت دالكوديت في معركة مستغانم التي جرت في سنة 1558م، تمكن حسن باشا من أسر عدد كبير من الأسبان والمتحالفين معهم من الأوروبيين، وقد حاول هؤلاء الأسرى الإفلات والهروب بعد ذلك على متن السفينة المسماة باستارد، لكنهم وقعوا من جديد في الأسر، فاختار منهم حسن باشا الأقوياء أصحاب العضلات المفتولة، لتسخيرهم في عمليات التجديف. ينظر: هايدو.

Haedo, Op-cit, p56.

وينظر أيضا:

Venture de Paradis, Tunis et Alger au XVIII^{ème} siècle. Mémoires et Observations rassemblés et présentés par Joseph Cuoq, éd, Sindbad, Paris1983.

[13] Haedo, Ibid, p56.

[14] Haedo, Ibid, p56.

[15] نسبة للولي الصالح سيدي حمودي، الذي دفن إلى جوار هذا السجن بعد وفاته

[16] سمّي بهذا الاسم، لأن غاليرتين نابولتانيتين وقعتا في الأسر، واقتيدتا إلى مدينة الجزائر، وكان على متنها بعض المجدفين الجزائريين الذين حصلوا على حريتهم، بينما افتدت حكومة نابولي بعض الضباط التابوليتان، وقام أباء الافتداء، بافتداء باقي الضباط النابوليتان. ينظر:

Henri Klein, Feuillet d'Ei-Djazair, 2vols, éd, du Tell, Alger2003, Vol,1, p157.

[17] Klein, Ibid, p157.

[18] Emmanuel d'Aranda, Relation de la captivité du sieur Emmanuel d'Aranda jadis esclave à Alger, Jean Mommart éditeur, Bruxelles1662,p156.

[19] يذكر درندا في مذكراته عن الأسرى الأوروبيين مايلي: "...كنت أجد متعة كبيرة عندما أستمع إلى ما كان يحدث في أوساط أسرى السجن، وعلى الرغم من أنني كنت أقيم في منزل سيدي محمد شلبي فقد كنت أذهب إلى السجن لأتسلى، وأروّح عن نفسي بالحديث إلى الطالب فراسوا، الذي كان يجتمع حوله أسرى من دنكيرك، كانوا يروون مغامراتهم، ومصادماتهم البحرية مع غيرهم في عرض البحر، وكان الهولنديون يتحدثون عما حدث لهم في جزر الهند الشرقية، وفي اليابان والصين. وأمّا الأسرى الدنماركيون والألمان فكانوا يروون قصصا عن صيد الحيتان في غرينلند، وفي أي يوم كانت الشمس تسطع في إيسلندا، يواصل درندا حديثه فيقول: وإذا لم تعجبني حكايات هؤلاء، أذهب إلى الإسبان الذين يتحدثون عن مستعمراتهم، وطريقة حكمهم له، ويتحدثون أيضا عن ملذات المكسيك، وثروات البيرو. أما الأسرى الفرنسيون فكان حديثهم يدور دائما حول الأراضي الجديدة، كندا، وفرجينيا. ينظر:

Emmanuel d'Aranda, Ibid,p160.

[20] Klein, Ibid, p157.

[21] جون.ب. وولف، الجزائر وأوروبا 1500–1830، تعريب وتعليق أبي القاسم سعد الله. م.و.ك. الجزائر1984، ص288.

[22] Dan (P), Histoire de Barbarie et de ses Corsaires, éd Pierre Racolat, Paris1637, p422.

[23] وولف، نفس المرجع. ص288.

[24] هو تيودور كروازيل، أقام في الجزائر بصفته مبعوثا كنسيا، برتبة سفير للفاتيكان من سنة 1757 إلى سنة 1763، حول المبعوثين الكنسيين ينظر:

-A.S.P.F, F.V, Appendice lista dei prefetti Apostolici, Vicari e Viscovi nelle sedi missionarie dell'Africa del Nord, tra il XVII e il XIX secolo.

[25] A.S.P.F, SC(Barbaria), Groiselle chiedi sussidi per la ricostruzione della Chiesa nel bagno del Beilik. Algeri 7-6-1754.

- بماذا نفسّر هذا التناقض الذي وقع فيه هذا المبعوث الكنسي المسمّى كروازيل، ففي الوقت الذي نجده يصف سكان الجزائر بالهمجيين والبرابرة، وأن حالة الأسرى المسيحيين في هذه البلاد يرثى لها، ها هو يذكر في تقريره المؤرخ في 7-6-1754، والمذكور أعلاه، بأنّ الداي تدخّل شخصيا وأمر بإعادة بناء الجزء المهدّم من كنيسة البايلك، بعدما تسببت الأمطار الغزيرة في هدم جزء من الكنيسة المذكورة، آلا يدلّ هذا على التسامح الديني؟ إذا ما ذكره المبعوث الكنسي كروازيل، فيما يتعلق بحالة الأسرى المسيحيين ما هو إلا مبالغة زائدة لاستعطاف الكنيسة البابوية لجمع مبالغ كبيرة من المال قصد افتكاك الأسرى المسيحيين.

[26] اعتمدنا في إعداد هذا الجدول على وثيقة عثرنا عليها في مركز أرشيف البربقندا فيدي. Archivio di Propaganda Fide .

-A.S.P.F, F.V, vol, 25. Op-cit.

[27] نسخ من هذه الرسائل محفوظة في أرشيف الفاتيكان، وهي موزّعة كما يلي:

-A.S.V, Registra Vaticana, Epistolae ad Principes, Segretaria dei Brevi.

[28] A.S.P.F, F.V. Op-cit.

[29] نذكر على سبيل المثال لا الحصر: فينشانزو دي باولو(Vincenzo di Paolo) جيروليمو كاستيلفيترانو(Girolomo Castelvitrano) فيرناندو هابا(Fernando Habba) كارلو ماريا دي جينوفا(Carlo Maria da Genova) فرانشيسكو قاتا(Francesco Gatta) إضافة إلى الجمعيات، ومنها جمعية آباء الافتداء (Pères de la Rédemption)آباء الرحمة(Pères de la Merci) آباء المستشفى (Pères de l'Hôpital) وغيرها من الجمعيات.

[30] A.S.P.F, SC(Barbaria), Op-cit, vol, 4 (1708-1723) et vol, 5 (1724-1740)

[31] A.S.P.F, FV. Op-cit.

[32] B.A.V, Arciconfraternità del Gonfalone. XX.B 36.

[33] Luigi Ruggeri, l'Arciconfraternita del Gonfalone. Roma 1866, p.1.

[34] نذكر من هذه البراءات (Brevi) تلك التي أصدرها البابا قرقوار الثالث عشر بتاريخ 12 أكتوبر 1576. ينظر:

Ruggeri, Ibid, p. 06.

[35] Ruggeri, Op-cit.

[36] ولد شارل الخامس، المعروف باسم شارلكان، سنة 1500، ورث ملك إسبانيا عن والدته جان، ابنة فرديناند وإزابيلا، انتخب أميرا لألمانيا بعد موت جدّه لأبيه الإمبراطور مكسيميليان، قضى أيامه في محاربة فرنسوا الأول ملك فرنسا، وحارب خير الدين أمير البحر الشهير بباربروس، قصد الاستيلاء على مدينة الجزائر، فلم يفلح، تنازل عنملك إسبانيا لابنه فيليب، وعن ألمانيا لأخيه فرديناند، واعتزل في أحد الأديرة حتى توفي سنة 1658 , ينظر:

- محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية. تحقيق الدكتور إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت 1401هـ/ 1981م. ص. 204.

[37] سعيــود إبراهيم : " لمحة عن الصراع الجزائري الإيطالي خلال العهد العثماني " مجلة دراسات في العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، عدد 7، سنة 2007، ص. 207.

[38] Luigi Pinelli, Un Corsaro Sardo Re di Algeri. Sassari 1972, p. 59.

[39] Pinelli, Ibid, p. 60.

[40] Corine Chevalier, Les Trentes premières années de l'Etat d'Alger 1510-1541. O.P.U, Alger 1986, p. 95.

[41] بونو سلفاتوري: " العلاقات الجزائرية الإيطالية خلال العهد التركي " تر. أبي القاسم بن التومي، مجلة الأصالة، عدد 6، الجزائر 1391هـ/ 1972م، ص. 100.

[42] تفاصيل أكثر حول حسن آغا وردت في كتاب بينيللي، ينظر الفصل الذي خصصه الكاتب لهذه الشخصية.

- Pinelli, Un Corsaro…, Op-cit, pp. 91-135.

[43] بونو سلفاتوري، نفس المرجع. ص. 101.

[44] Turk Ansiklopedie, p. 324.

[45] سعيـود إبراهيم: علاقات الجزائر...، المرجع السابق، ص. 47.

[46] Salvatore Bono, Sciciliani nel Maghreb. Roma 1992, pp. 69-73.

[47] الترجمة الواردة في النص قام بها صاحب هذه الدراسة.

[48] حول القرار البابوي المذكور، راجع دراستنا الموسومة: وثيقة أرشيفية بابوية تتعلق بتعميد الأسرى المسلمين (قراءة تاريخية) مجلة الدراسات التاريخية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2،العددان 15 و 16، السنة 1434ه/ 2013م، ص 237 وما يليها.